بمعنى الكلمة في القاموس الفرنسي أو الإيطالي[١٧] كما يجب ألا نعد عذابهما بعد الجريمة ناتجاً عن يقظة الضمير[١٨]، بل ناتجاً عن ذلك الفتور الذي أصاب علاقتهما بعد إرضاء رغبة الغريزة والشعور بأن كلاً منهما أصبح ملكاً للآخر، فلو كان الأمر راجعاً إلى الضمير لما وجدناهما يستمران في إيلام العجوز المسكينة «أم كميل» التي عقد لسانها الشلل ولم تستطع أن تبلغ عنهما.

ومن البدهي فإن الطبيعيين يتنكبون جادة الصواب حين يتمسكون بهذه الآراء الحتمية التي تلغي الأخلاق والمثل والقيم الإنسانية إلغاء تاماً، فإذا كان الإنسان مخلوقاً بيولوجياً غريزياً ميكانيكياً، فكل شيء مباح إذن، ولا مكان للإرادة الإنسانية ولا للعقل.

وقد حاول «زولا» أن يدافع عن الطبيعية فزعم أن هذا المذهب يصلح الأخلاق لا يفسدها، لإن مهمة الكاتب الطبيعي تتمثل في وصف الظواهر النفسية والاجتماعية، والوقوف على قوانينها كي يتمكن الإنسان من السيطرة عليها، أي أن الكاتب يصبح مثل «العالم في معمله، والطبيب في تجاربه»[١٩]، يدرس الظواهر ويجري عليها تجاربه، شريطة ألا تناقض نتيجة تلك التجارب الحقائق والقوانين التي انتهى إليها العلم[٢٠]. ومن هنا فإننا نرى «زولا» يرد على النقاد والقراء الذين استنكروا الجرائم الوحشية التي وردت في روايته «الحانة»[٢١] قائلاً: «لقد أردت أن أصور الانحطاط المشؤوم لعائلة من العمال في محيط ضواحينا الموبوءة»[٢٢].

وأياً ما يكون الأمر، فإن الحياة الإنسانية أغنى وأوسع من أن تفسرها نظرية متطرفة كنظرية الطبيعيين الذين يردون التفكير والسلوك والعواطف الإنسانية إلى الحتمية البيولوجية الغريزية، ويقحمون العلم وتجاربه على الحياة الأدبية بطريقة غاية في التعسف.

٣) ومن ميزات الواقعية الطبيعية أنها تنزع نزعة فوتغرافية وثائقية في وصف الأشياء والحياة. وهذا ناتج عن المبالغة في الدعوة إلى الموضوعية التي فهمها